

لغز أوراسيا

الكاتب



عبدالحسين شعبان

عبد الحسين شعبان

يتخطى اسم أوراسيا الكلمة المركبة، التي تجمع أوروبا وآسيا، ليصل إلى جمع الجغرافيا بالسياسة (جيوبوليتيك)، في إطار استراتيجية دولية، تتصارع فيها وحولها قوى كبرى من داخلها ومن خارجها. وقديماً قيل من يملك أوراسيا يهيمن على العالم.

تبلغ مساحة أوراسيا 55 مليون كيلو متر مربع، أي ما يعادل 37% من مساحة اليابسة على سطح كوكب الأرض، ويسكنها 70% من سكان العالم (نحو 5 مليارات وثلث المليار نسمة)، وكان بريجنسكي، مستشار الأمن القومي في عهد الرئيس جيمي كارتر (1977 - 1981)، يدرك أهمية البعد الجيوستراتيجي لهذه المنطقة، لاسيّما نفوذ الولايات المتحدة فيها، خصوصاً صراعها الأيديولوجي مع الدب الروسي في فترة الحرب الباردة، وهو ما تناوله بعمق في كتابه ««رقعة الشطرنج الكبرى»».

ويُعتبر المنظر البريطاني هالفورد ماكيندر، المتخصص بالجغرافيا السياسية، من أبرز دعاة فكرة الأوراسيا، منذ مطلع القرن العشرين، وهي الفكرة التي عاد وطرحها المفكر الروسي ألكسندر دوغين، إثر انهيار الاتحاد السوفيتي، وهو ما تبناه الرئيس الروسي فلاديمير بوتين منذ العام 2000.

قدّم دوغين «الأوراسية» باعتبارها النظرية الرابعة بديلاً للنظريات التي سادت في القرن العشرين (الاشتراكية والفاشية والليبرالية) بدعوته إلى تعزيز القوة الجيوبولوتيكية لروسيا، والتكامل مع المحاور البرية التابعة في «الحزام الأوراسي» و«الحزام الباسيفيكي»، و«الحزام الأورو أفريقي»، والشرق الأوسط (وبضمنه العالم العربي)، الذي أصبح ساحة اشتباك جيوبوليتيكي مع الولايات المتحدة.

وحسب دوغين فإن هدف روسيا هو تكوين قطب عالمي منافس للقطب الأمريكي. وقد أثارت أطروحاته اهتماماً من لدن نخبة من الأكاديميين والمعنيين العرب، وكنت قد التقيته واستمعت إليه في محاضرة تفصيلية بهذا الخصوص

أما بريجنسكي فتحليله يركز على ضرورة هيمنة الولايات المتحدة على البر الأوراسي، الذي يوجد فيه الجزء الأكبر من سكان العالم، وأيضاً الموارد الطبيعية والنشاط الاقتصادي، ويمتد من البرتغال إلى مضيق بيرينغ (يفصل بين قارة آسيا وقارة أمريكا الشمالية)، ومن لابلاند (أقصى الجزء الشمالي من فنلندا) إلى ماليزيا، وهي التي تمثل رقعة الشطرنج الكبرى، والذي يسيطر عليها، سيتم الاعتراف له بالقوة والتفوق

وبالعودة إلى ماكيندر، فإن «المنطقة المحورية» الأوراسية هي تلك التي تضمّ سيبيريا والجزء الأكبر من آسيا الوسطى، إضافة إلى الأرض المركزية، التي تشمل وسط أوروبا وشرقها بوصفها تشكّل نقاط الانطلاق الحيوية لتحقيق السيطرة على القارة، وبالتالي على العالم، في حين أن بريجنسكي حدّد 5 قوى جيواستراتيجية في أوراسيا هي: فرنسا وألمانيا وروسيا والصين والهند، مستبعداً دولاً مثل بريطانيا واليابان وإندونيسيا على أهميتها، أما الدول مثل أوكرانيا وأذربيجان وكوريا الجنوبية وتركيا وإيران، فيمكن أن تؤدي دور المحاور الجيوبوليتكية الثابتة المهمة

وانطلاقاً من هذا المفهوم، نلاحظ أن التوجّه الأمريكي نحو دول آسيا الوسطى وأفغانستان والعراق خصوصاً، والعالم العربي عموماً، وأوروبا الشرقية والقوقاز وجورجيا، ازداد كثافةً وتأثيراً، بما فيه الصراعات الدائرة اليوم مع إيران وفي سوريا ولبنان واليمن، وهو جزء من المواجهة مع روسيا وحليفاتها الصين، سواء كان الأمر على نحو مباشر أو غير مباشر.

وإذا كان هذا هو الفهم الأمريكي لأوراسيا، فإن الفهم الروسي الأوراسي يعاكسه بشدّة، بما فيه تبريره للحرب في أوكرانيا باعتبارها «دفاعاً عن النفس»، في حرب مفتوحة اقتصادياً وسياسياً واستراتيجياً، لاسيّما في ما يتعلّق باستيراد بعض (دول أوروبا الغاز الروسي) (ألمانيا وفرنسا).

وكان بريجنسكي يدرك أنه «من دون أوكرانيا، لا يمكن لروسيا أن تصبح قطباً سيادياً لعالم متعدد الأقطاب»، والتعددية القطبية التي نظّر لها، منذ مطلع السبعينات في كتابه «بين عصرين – أمريكا والعصر التكنولوجي»، هي التي أخذت تتبلور بعد صعود التنين الصيني وبداية معافاة روسيا لتشكيل محور مواز للمحور الغربي

وإذا كانت الحروب في أوراسيا قديمة ومعقّدة، فهي تتجدّد باستمرار تحت عناوين إثنية أو عرقية أو دينية، وهي حروب موروثه من الماضي السحيق، حتى وإن كانت تختفي وتظهر، فإن الجديد فيها هو الدور غير الأوراسي، بدخول الولايات المتحدة طرفاً أساسياً بمحاولة نصب صواريخ بالستية لحلف الناتو على الحدود الأوكرانية – الروسية، بهدف إضعاف روسيا المتحالفة مع الصين، منافسها الاقتصادي والتكنولوجي الأول

صحيح أن الروس والأوكرانيين ينتمون إلى العرق السلافي، ويدينون بالديانة المسيحية وفقاً للمذهب الأرثوذكسي، ويرتبطون تاريخياً بعلاقات عميقة ومتشابكة، إلّا أن الحساسيات القومية القديمة، خصوصاً في الحقبة السوفييتية، تركت ندوباً عميقة في الذاكرة الجمعية الأوكرانية. وقد يكون من باب ردّ الفعل ميلها إلى الغرب وتطلّعها لتكون جزءاً منه، بعد انفصالها عن الاتحاد السوفييتي في العام 1991

في الصراعات الأوراسية الجديدة – القديمة (الصين – تايوان)، لا يمكن إغفال دور واشنطن، إضافة إلى تأجيج الصراع الياباني – الصيني، مثلما هو بين كوريا الجنوبية والفلبين، وذلك بإيقاظ روح الكراهية والحق، بما يعيق الرغبة

في وصول هذا الجزء الأوراسي إلى الاستقرار والتعاون. وعلى حافة أوراسيا، تتعرض غزّة إلى حرب إبادة جماعية من أكثر الحروب بشاعةً وتوحشاً من جانب «إسرائيل»، وبدعم ومساندة مادية ومعنوية من واشنطن، ولعلّ هذه الحروب وغيرها هي امتداد لتلك الحروب المعتقدة

drhussainshaban21@gmail.com

"حقوق النشر محفوظة" لصحيفة الخليج. © 2024